نظرات خاطفة

من الشعر السودانى الحديث

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى

أكثر الأدباء اليوم أو المتأدبين والمتذوقين الأدب بصورة عامة منغمرون فى السياسة، وتتبع الحوادث الدولية، وما يجرى خلف كواليس الأمم الكبرى التى تريد أن تقرر مصير الشعوب والإنسانية بالحق والباطل، لذلك فهم بعيدون عن تتبع النشاط الفكرى والحركات الأدبية فى البلدان العربية والشرقية بصورة خاصة. ولعل لهم العذر، وقد يكون العذر واضحاً لمدى اطلاعهم على الصحف الأدبية التى تمثل النتاج الأدبى فى تلك الأقطار من جهة، وانغماسهم فى المادة وتفضيلهم صرف المال فى سبيل البطن والكماليات من جهة أخرى. كأنما الكتابة ضرب من الجنون لا يجب على المتمدين مزاولته، فلهذه الأسباب أقول إن أكثر الأدباء والمتأدبين — إن لم أقل كلهم — لا يعرفون من الأدب السودانى الحديث — وخصوصاً الشعر منه — شيئاً، كما أنهم لا يدرون من هم أبطال النهضة الشعرية ورواداها فى هذا العصر — وعلى سبيل المثال أقول إن الكثرة الغالبة من أدباء العراق لم يسمعوا بشاعر الشباب السودانى التيجانى رحمه الله وهم حتى الآن لم يعرفوا أن له ديوانا موسوماً بـ (إشراقة) طبع مرتين فكيف بالأحياء — لهذا ولما كنت من المتتبعين للنهضات الفكرية الحديثة فى البلدان العربية وخصوصا السودان المصرى ولى مع أدبائهم وشعرائهم صلات أخوة كريمة وثيقة — أرجو أن لا تفصم عراها الأيام — أحببت أن أقدم فى هذه المجالة الخاطفة نماذج من الشعر السودانى الحديث على أن أتبع هذه المقدمة بأحاديث أخرى فى المستقبل القريب إن شاء الله. وعليه توكلنا ومنه القوة والعزم

وأولى هذه النماذج هى لزعيم الشعر الإيمانى المرحوم

التيجانى يوسف بشير (١)

ولد شاعرنا فى أم درمان سنة ١٩١٢ م وهو أحد التيجانى ابن يوسف بن بشير بن محمد بن الإمام جزرى الكتيابى والكتياب بيت مشهور من بيوت السودان ممتاز بين قبائل الجعليين الذين عرفوا بالإقدام والسماحة، ولقب بالتيجانى تيمنا بالطريقة المروفة، دفع وهو صغير إلى خلوة عمه الشيخ محمد القاضى الكتيابى لحفظ القرآن ومشى بعد ذلك فى طريقه المرسوم إلى المعهد العلمى فى أم درمان حتى تخرج منه ثم اتصل بالصحافة بعد استيعاب كثير من كتب الأدب القديم وكتب الصوفية والفلسفة؛ فشغلته هذه الدراسات عن نفسه حتى دب إليه الوهن فتوفى سنة ١٩٣٧ م. هذا هو مختصر حياة التيجانى، ولكن الذى يقرأ شعره يدرك أن السنوات القصيرة التى عاشها الشاعر ما ذهبت عبثا — وإن كانت عمر الورد — لأنها تركت لنا أنغاما عذبة يظل صداها يرن فى سمع الكون مدى الزمان.

وإليكم اللحن الأول

النائم المسحور (٢)

أيها النائم فى مهد أغانى رلحنى
هكذا يدفق إيناعس فى حسنك حسنى
هكذا ينفذ سلطانى ويسمويك حزنى
هكذا يهبط فى عينيك ما تدفع عينى

* * *

أنت يا واهب ألحانى ويا ملهم فنى
أنت فجرت لى اللحن ففيأنك أمنى
إنما أصدم من كرمك صهبائى ودنى
إنما أسحر عينيك بما تسحر منى
يا أمانى التى أعبدها من كل لون
وأغانى التى ألهمها سلهم جن
والتى ذوبها الشاعر فى الصوت الأغن
كلما طار بها العود وقراها المغنى

* * *

١ — مقدمة ديوانه (إشراقة) ص ٢
٢ — ص ٧٨ الديوان نفسه

خفقت ذات جناحين : مدو ومرن
عبرت كل فؤاد وتغشت كل أذن
هكذا يدفق يا ناعس فى حسنك حسنى
وكذا ينفذ سلطانى ويستهويك حزنى

ومن هنا يدرك القارئ الكريم أن الناحية الغنائية هى التى تطغى على شعره وهى التى تقتصر على التغنى بالخوالج النفسية والإحساسات الروحية الذاتية ، وهو شعر جميل فى حد ذاته وأكثره خالد ؛ لأن النفس تميل إلى الإشادة بمن يشرح آلامها ويعبر عن انفعالاتها كما يقول الدكتور إبراهيم فى خطبته التى لقاها فى تأبينه ، ولا نريد أن ندع التيجانى دون أن نقدم له قطعة موسيقية أخرى من شعره الغنائى الذى أعده من أخلد الشعر وإن اختلفنا أنا والأستاذ عباس خضر فى هذا الصدد (٣) . وللمسمه فى قصيدته المنشورة ص (٢٠) من الديوان تحت عنوان :

جمال وقلوب . . .

وهبناك يا جمال وضفنا ... لك أنفاسنا هياما وحبا
ووهبنا لك الحياة وبخو ... نا بنابيعها لعينيك قربى
وسمونا بكل ما فيك من ضعـ ... ـف جميل حتى استفاض وأربى
وحبونا ك ما يزيدك بالز ... وضوحا وأنت تفنأ صعبا
وذهبنا بما يفسر معنا ... ك ، بعيدا وأنت أكثر قربا
من ترى وزع المفاتن يا حسـ ... ـن ومن ذا أوحى لنا أن نحبا!
من ترى علم القلوب هوى الحسن ، وقال اعبدى من السحر ربا!
من ترى ألهم الجمال وقد أعطاه من جبرة الحوادث عضبا !
أن بيت الهوى مفاتن فى جفن بليغ ، وأن يجود ويأبى !
من ترى رثق المرى بين مسحورين ، أسماهما جمالا ، وقلبا !
إنه صانع القلوب التى تنصب ... فى قالب الحامن صبا

* * *

يا جمال الحياة فى حيثما كا ... ن أمانا . وحيثما كان رعبا
وجمال الحياة فى كل من أعمل ... شرقا وكل من سار غربا
أنفس يا حسن ما تريد وتبغى ... أوفكن هينا على النفس رطبا
أنا وحدى دنياه وى لك فيها ... كل كنز من الشاعر قربى

أى والله هذا هو السحر الحلال الذى يجرى فى لفظ موسيقى ولكنه عربى أصيل لاحوشى فيه ولاغريب ، ورحم الله التيجانى بعد هذا حيث يهتف بلوعة المحروم وهو يناجى حبيبه البعيد من قصيدته المنشورة فى (ص ٨٩) والمرسومة بـ

نعيم الحب . . .

إن لى من وراء عينيك هاتـ ... ـين معنى وفيهما لى مخدع
فيهمـا لوعة القلوب ونعما ... ها ، وكم فيهما حديث موقع
كم يجنى من مفاتن ما تخفض هيناك من جلال وترفع
نفس هائم يصعده الحب ... نديا كأنمـا هو مدمع
مر بى طائرا فأوردته نفسا أصابت من سحر عينيك مشرع
فيه من لوعتى أحاديث يغلى ... فى حواشيهما فؤاد مفزع

* * *

كل ركب منها رسول من القلب المعنى إلى الملاك الممنع
أيهذا الحبيب ما بى إلا أن دنيـاى من نعيمك بانع
أنا أشقى بالحب من حيث ما ينعم قلب وكم أفاد وأمتع
والهوى نعمة الزمان ، ونعمى الخلد أسمى من الحياة ولوفع
الجمال الذى استفاد به الله وجودا صعب القيادة أروع

---

(٣) لاشك أن القراء اطلعوا على رأى الأستاذ عباس خضر فى الشعر الغنائى الذى نشر فى أعداد فائتة من الرسالة الزاهرة ردا على رأيى فلما أحب أن أقدم له هذا الرأى الجديد وهو مقتبس من كتاب المستشرق الدكتور ر ، بلاشير باللغة الفرنسية وترجمه صديقنا العلامة الأستاذ أحمد أحمد بدوى المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول باسم « ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين » وتفضل فأهداه لى وأنا مع شكرى له أقدم هذا الرأى عن شعر المتنبى وشهرته إلى الأستاذ عباس خضر على أن أرجع للكتابة عن الكتاب قريباً قال المؤلف ص « ١١٨ » والعنصر الأخير الذى ثبت شهرة أبى الطيب هو مافى شعره من موسيقى » ويقول ص « ١٢١ » : — « وإذاً فما يبقى للمتنبى فى نظرنا ؟ يبقى منه بكل دقة ما أكد فى نظرنا شهرة المتنبى فى الأوساط العربية فى مصر وسوريا ، وأعنى به هذه الأشعار الغنائية والفلسفية التى تزين أغلب قصائده » حتى يقول ص « ١٢٣ » : « ولقد وازناه — أى المتنبى — بغيره من فنانى لغته ، نعرف بم سحر المعجبين به من العرب ، وهو لا يبدو لنا حينئذ مجرد مقرم بالأفكار الشائعة ، ولكنه ساحر بليغ يعرف كيف يصقل عباراته بكثير من الفن ويجعلها ذا أسلوب عاطفى سام »

أليس هذا دليلا على أن الشعر الغنائى ذا الجرس الموسيقى أقرب للخلود والترديد والترتيل ؟ !

وإلى هذا نودع النيجاني شاعر الشباب لنقدم لكم شاعرا آخر وهو معروف لدى القراء ؛ فقد سبق أن طالعوا شعره في مجلتي الرسالة والثقافة الزاهرتين وصحف السودان وخصوصا (الصراحة) و (التلغراف) وغيرها من أمهات صحف الخرطوم وهو صديقنا الشاعر المبدع الشاب الأستاذ جعفر حامد البشير الذي نترك ترجمة حياته الآن إلى مقال مفصل عنه، ولكن حسبنا أن نورد عنه هذه النبذة التي كتبها عنه الدكتور محمد النويهي أستاذ الأدب العربي بكلية الخرطوم الجامعية .. والتي نشرتها جريدة (الصراحة) (٤) القراء وها هي :

« أكون لكم جد شاكر إذا تكرمتم بإبلاغ شكري الجزيل وامتناني الصادق للشاعر الموهوب الأستاذ جعفر حامد البشير لقصيدته الفائقة في تحية النهضة النسائية . وأود أن أنتهز هذه الفرصة لأعبر عن إعجابي الخاص بكل ما قرأت له من شعر ، ولست أغالي إذا قلت انه بين جميع الشعراء والسودانيين منذ التيجاني أحسنهم جميعا بين سلاسة التفكير وصحة الأسلوب ؛ وبين صدق العاطفة وإخلاص المشاركة لروح السودانية .. » للشاعر البشير قصائد ممتازة مبثوثة في خفايا الصحف والمجلات، وها نحن نورد للقراء المثال الأول منها وهي قطعة بعنوان « نفديك » قال

يا مشرقا وضياء الشمس يغمره ... لا زلت تمرح إشراقا بإشراق
نفديك كيف تبيت الروح ظامئة ... والنبع عندك نبع الحسن يا ساقي
بل في جمالك أنهار مطهرة ... من كل عذب إلى الشطآن دفاق
يا فاتنى إن قلبي قد ظفرت به ... أنحى خلايا صبابات وأشواق
قد لامني فيك أقوام وما علموا ... أني المدل بآدابي وأخلاقي
نزهت نفسي عن الفحشاء في زمن ... أهلوه معشر مجان وفساق
قالوا ، وأرجف أقوام وما علموا ... أن العفاف دماء ملء أعراق
يا سامح الله منهم ، رغم ما اقترفوا ... إني عليهم لذو عطف وإشفاق

ويبدو البشير في قطعته هذه شاعراً متزهداً عارفاً في حلمه عاتباً على وشاته أراجيفهم، ورغم ذلك فهو سمح عطوف ، وأظنه في شعره هذا متأثر بكتب الصوفية وطرائق شيوخها. على أن ذلك كله لم يؤثر على عاطفته فشعره سهل رقيق ، وعاطفي عذب ، وجرسه حلو فاتن ، والدلالة أكثر على هذه الناحية منه نسوق للقراء هذه الأبيات أيضا من قصيدته « هوى يتجدد » قال :

وهوى أراه على المدى يتجدد ... ما زال يهبط في الفؤاد ويصعد
هو في الصباحات الرطاب نسائم ... نشوانة ـ ملء الفضاء ـ تعربد
ولدى الخوالك في العشايا شعلة ... ما أن تزال مشعة تتوقد
محراب قلبي .. كلما عاودته ... ألفيت فيه أخا هوى يتعبد
أنا للصبابة والغرام فإن أمت ... فأنا الشهيد بحبه المتعبد

ألم أقل لكم إن أخانا البشير شاعر صوفي ؟ وهل أدل على صوفيته ورهبنته « فأنا الشهيد لأني متعبد في محراب الحب والجمال »

قدست سرك يا جمال وأذعنت ... روحي وقلبي للفتاتن يسجد
يا حسن ، يا نهر الحياة ونبعها ... قلبي ـ فديتك ـ في الهواجر فدفد
أظمأته دهراً فهل من رشفة ... تشفي لواعج أنسمت لا تبرد

أو قوله من قصيدة بعنوان « جمالك » ..

جمالك لا فاضت ينابيع سحره ... سيبقى لصنع الله أروع شاهد
أرى ، ما أرى ؟ درأ نضيداً . وبسمة ... لها مثل إشـــعاع النجوم الفراقد
وهذا الجبين الحلو زان صفاءه ... وميض بهيج الضوء جم التطارد
فأنت الذي فتحت قلبي للهوى ... وألهبت وجداني، فلست بجاحد
وأنت الذي وجهت للحسن خاطري ... وشعري ، عمداً منك أو غـــير عامد
إلاهات جدد من حياتي فإنني ... لأنكر من آثارها كل بائد
أعود إليك اليوم ولهان مدنفا ... فهل أنت من قمل الصبابات عائدي
أفكر فيك الليل والصبح هاتفا ... فألقاك والتفكير بعد مناودي
وما محى من خاطري لك صورة ... هي النبع في جدبي ودنيا فدافدي

* * *

ولا أحب أن أنتقل بالقراء إلى شاعر آخر دون أن أشير إلى الميزة الفذة التي يتمتع بها البشير والتي تكاد تطغى على شعره؛ هي هذه الموسيقة اللفظية الحلوة التي يزاوج بها معانيه وأخيلته

(٤) الصراحة جريدة يومية سياسية تصدر في الخرطوم وهي من أوسع الصحف السودانية انتشارا ورواجا

أما الشاعر الثالث فهو من الذين يتصفون بالرقة والنزوع إلى التجديد برغم كونه غير معروف للقراء، لأنه لا يميل لإذاعة شعره على الناس ولا نشره فى الصحف . وكان هذا الصديق قد أرسل إلى مجموعة من شعره لأرى رأيى فيها فطالعتها بإمعان فوجدت فيها روحاً سامياً وشاعرية فذة لو تعهدها صاحبها بالصقل والران لخلقت منه ورثاً جديداً من أوتار الشعر فى السودان؛ وهذا الشاعر هو الأستاذ جعفر عثمان مومى ، وهذه أنغامه ، قال من قصيدة له بعنوان (حياة خاوية) وسيرى القراء فيها مدى الحيرة التى تلازم الشاعر والألم الذى يعصف بحياته ! قال

أطل على عالم بارد كأنى أطل بوادى العدم
ظلام ويأس وصمت كئيب وكأس بها من عصير الألم
وفى كل ركن هموم ثقال وثغر يعض بنان الندم
وقلب تحطمه لوعة وخد خضيب بدمع ودم
فلا القلب نشوان من فرحة ولا الروح سابحة فى القمم
وفى النفس طاف الأسى والبكا وسار المشيب ودب الهرم
فنفسى مبعثرة حيرة وغارقة فى بحار السأم
ظلام يعيبى ونفسى مشى وهم ثقيل يصدرى جثم
ولى مظهر كلما داعبته يدى بث حولى فحيح السقم
كأنى بصومعتى راهب أكب على ربه يستلم
ونام وأصبح صبح وقد تهدم معبده والصنم
حنانك ربى سئمت الحياة وضقت بثقلى عليها القدم

وهاك نغمة أخرى ، نغمة جديدة ثائرة متمردة على كل شئ حتى على الشاعر نفسه ، ولنترك يصف الحياة التى يتطلبها فى قصيدته « القمم »

هنالك فى القمة العاليه فضاء وحرية للنجاح
ترامى الضياء على الرابيه وتزأر كالوحش هوج الرياح

* * *

هنالك لا الشمس مسودة ولا البدر مستتر بالسحاب
ولا الأنجم الزهر مربدة ولا الفجر يغفو وراء الضباب

* * *

هنالك السهاسب مخضرة
وسفح الربى ورؤوس الهضاب (*)
فلا شاة من عيشها غدوة وللذئب حظ كما للذئاب

* * *

أيا كتلا كقطيع الشياه تساق إلى الموت بين الحديد
إلام تسيرون عمياً حفاه وتحيون كرها حياة العبيد

* * *

إلى القمة الحرة الساحره إلى حيث شيدت قبور الجدود
إلى الشملة الحية الباهره إلى العيش تحت ظلال الخلود

* * *

ألم تسأموا من رقاد الثرى وإطباق هذا الظلام البغيض
ألا تبدأون صعود القرى وتنفضون عنكم هوان الحضيض

* * *

ألم تسأم العنق أغلالها ألم يسأم الجسم لذع السياط
أما مجت الظهر أحمالها أما ملت الأنف مس البساط

* * *

لقد آن أن تبعثوا من جديد وآن لنور الحياة الشروق
وآن لعهد طغى أن يبيد وأن تبدؤا فى اقتحام الطريق

* * *

وأخيراً ماذا أذكر بعد ما قدمت للقراء هذه النماذج من الشعر السودانى الحديث .. أقول أنا عاتب على أدباء السودان وشعرائه لأننى رغم مرور أكثر من ستة أشهر على الدعوة التى وجهتها لهم على صفحات جرائدهم فى الخرطوم بواسطة زميلنا الأستاذ جعفر حامد البشير لم يردنى منهم شىء أستطيع أن أصنع منه دراسة أدبية مفصلة ودسمة لنشرها على الناس ، فهل أنا اللوم أم هم ؟ وهل بعد كل هذا يحق لجريدة «النيل» أن تتمتنا بالخمول وعدم الكتابة عن الأدب السودانى ؟ إن هذا العتاب نفسه أوجهه لأدباء السودان وشعرائهم وأساتذة كلياتهم ومدارسهم

(*) جمع سبسب — الفلر